الجسد في فلسفة فريديريك نيتشه

قورارية حليمة مرزوقي
جامعة وهران

ملخص:
إن الفلسفة القديمة، وتحديدا الفلسفة اليونانية وكذا الديانة المسيحية والإسلامية قد احتقرت الجسد واعتبرته أقل شأنا من النفس. في الفلسفة الحديثة،كان ديكارت يحتقر الجسد،من جهة ومن جهة أخرى كان معظما له نظرا لقيمته الأنطولوجية،على خلاف سبينوزا الذي طابق بينه وبين النفس. أما نيتشه، فنظرا لتأثره بالثورة العلمية التي تأسست على التفسير المادي للكون والتفسير الفيزيولوجي للإنسان، قد رأى أن الجسد أعلى من النفس وما هذه الأخيرة إلا جزء تابع له. إن أ صل الإنسان يرجع إلى الجسد، من خلاله تنبثق الحيوية وإرادة القوة. إنه المكان الذي تنبع منه المعرفة، السعادة، وكل القيم. إن استثمار إرادة القوة الإثباتية للجسد يحوله هو ذاته إلى جسد أعلى ويخلق الإنسان الأعلى(السوبرمان).
الكلمات المفتاحية: النفس، الجسد، إرادة القوة، الجسد الأعلى، الإنسان الأعلى.

Abstract :
Antique philosophy, notably, platonic, as well as the christian and the islamic religion downgraded the human body. They considered it as inferior than the soul. In modern philosophy, DESCARTES was on the one hand devaluing of the body , on the other hand he was grateful for his ontological value, contrary to SPINOZa who identified the body to the soul .As for NEITZSCHE ,he was influenced by the scientific rev*olution which was founded on the materialistic explanation of the* world and the physiological explanation of man. Thus, he so wthat the body is superior than the soul. This latter is only a part which is dependent on itself. The origin of human beingis indeed the body. Throughit ,vitality, will to power emerge.Where knowledge, joy and all values take place. The fact to benefit from the affirmative will to power of the body, it self will become superior (a super body)and will create a SUPERMAN.
key words :soul ,body, will to power, super body, superman

مقدمة:
إن الفلسفة عبر تاريخها قد تناولت الوجود الخارجي بطرح سؤال ما أصل الكون, لكنها أيضا, اهتمت بالوجود الإنساني من خلال طرح الإشكالية التالية:هل هو نفس أم جسد؟ ما هي طبيعة العلاقة بين الجسد والنفس؟ والإجابة عليها قد اتفق حولها فلاسفة نسبيا واختلف حولها فلاسفة آخرون إلى حد التناقض. وهذا المقال ينصب حول فلسفة الجسد عند أحد الفلاسفة المعاصرين الذين تأثروا بالثورة العلمية في منتصف القرن التاسع عشر ,التي اتجهت الى التفسير المادي للكون والتفسير الفيزيولوجي للإنسان. إنه فريديريك نيتشه حيث في هذا السياق سنطرح السؤال التالي: ما هي رؤية نيتشه للجسد؟هل اعتبر الجسد مكونا أنطولوجيا سلبيا؟ هل كرر ما قاله سابقوه؟ هل رأى أن الجسد تابع للنفس أم مساو لها ؟أم أن الجسد مكون أنطولوجي للذات الإنسانية وفاعل أساسي فيها,وما النفس إلا تابعة له؟هذا السؤال سيحيلنا إلى طرح سؤال آخر وهو كيف يقارب نيتشه بين الجسد وإرادة القوة؟
تحليل:
1-الجسد ما قبل نيتشه:
إن الفكرالفلسفي القديم وتحديدا فلسفة أفلاطون اعتبرت الوجود الإنساني مؤلفا من نفس وجسد لكن هذهالتركيبة تربط بين طرفيها علاقة تراتبية حيث أن النفس أعلى شأنا من الجسد من الناحية الأنطولوجية, الإبستيمولوجية, الأخلاقية, السياسية وحتى الجمالية فقد حذر أفلاطون من الولع به قائلا على لسان سقراط:"إن قضيتي الوحيدة أن أجوب الشوارع لإقناعكم جميعا, شبابا كنتم أم شيوخا, بألا تولعوا بالجسم ولعكم بالنفس سعيا لجعلها خيرة ما استطعتم"[1].
وامتدت هذه التراتبية المعلنة إلى الفكر الديني اللاهوتي المسيحي والإسلامي الذي اعتبر الجسد حاملا للنجاسة والغرائز المفسدة فوجبت على المؤمن الطهارة المادية بالاغتسال والوضوء.... والمعنوية بالتعفف والزهد.. أما في الفكر الفلسفي الحديث نجد ديكارت هو الآخر يعلي من شأن النفس و ينقص من مكانة الجسد, فهي القضية الرئيسية بعد قضية الله يريد أن يبرهن على وجودها فلسفيا وليس لاهوتيا "دائما ما اعتقدت أن معضلتي الله والنفس هما من أخطر المعضلات التي يجب أن تبرهن بأدلة الفلسفة خير من أدلة اللاهوت"[2], وأنها أيسر معرفة من الجسد الذي يضايقها ويشوش وجودها التام فهي"أيسر أن تعرف وأيضا لو لم يكن الجسم موجودا البتة لكانت النفس موجودة بتمامها"[3] لكن ديكارت من جهة أخرى وبعدما قال :"هي قادرة على أن تكون وأن توجد بدونه "[4] قال أيضا "أنكرت فيما تقدم أن يكون لي حس...أن يكون لي جسم,...مع ذلك أنا متردد"،[5] حيث يعقد ديكارت علاقته الحميمية مع الجسد والاعتراف به كذات له حيث قال أيضا: "لقد أحسست أولا أن لي رأسا و يدين وقدمين وسائر الأعضاء المركب منها هذا الجسم الذي كنت أعده جزءا من ذاتي بل الذي كنت أعده ذاتي كلها "[6]. إلا أن فلسفة وحدة الوجود عند سبينوزا ستحدد علاقة من نوع آخر بين النفس والجسد. فالوجود الإلهي والوجود الطبيعي شيء واحد.حيث يعتبر الله علة محايثة لا مفارقة للأشياء جميعا, ماهو إلا الأشياء في تحققاتها الحالية ,والجوهر الفرد الذي يتألف من العديد من الصفات اللامتناهية "إن المقصود من صفات الله هو ما يعبر عن ماهية الجوهر الإلهي أي ما ينتمي إلى الجوهر وبالتالي فهي أزلية."[7] يعرف منها الإنسان إلا صفتين,هما صفة الامتداد وصفة الفكر, وكل صفة من هذه الصفات تحتوي على عدد لا نهائي من الضروب أو الأحوال, وكل ما يوجد في الطبيعة هو ضرب من ضروب صفة الفكر أو ضرب من ضروب صفة الإمتداد أو ضرب

من ضروب الصفات الأخرى التي لا يعرفها الإنسان. إن المعنى الكلي للوجود هو المجال الذي يشمل كل شيء والمادة والروح صفتان والتحققات العينية لهاتين الصفتين هي الأحوال (الضروب) كالشجر, الحجر, المعدن, الوعي, الإنسان. ففي مؤلفه الأخلاق يقول: "ليست الأشياء الجزئية غير أعراض لصفات الله وبعبارة أخرى إنها أحوال يعبر من خلالها عن صفات الله بطريقة معينة ومحددة, إن البرهان على ذلك بديهي من خلال القضية 15 والتعريف 5"[8]. هذا التفسير الجديد لمفهوم الله عند سبينوزا نتج عنه مفهوم جديد للإنسان الذي هو من بين التحققات الواقعية للجوهر(الله), يتشكل من ضربين أو حالين متحدين وهما النفس والجسد, فالنفس ضرب أو حال لصفة التفكير كصفة إلهية والجسد ضرب أو حال لصفة الإمتداد كصفة إلهية أيضا.وبهذا الطرح يرتقي الإمتداد أو المادة إلى مستوى طبيعة الله فلم يميز سبينوزاأنطولوجيا وأخلاقيا بين نفس راقية وجسد أدنى بل هما متساويان في الإنسان.لقد تجاوز الثنائية التراتبية بينهما سواء الديكارتية أو ما قبلها فأصبح عنده"الجسد والنفس شيئا واحدا وعملية واحدة نراها من الداخل عقلا ومن الخارج مادة "[9]

2-الجسد عند نيتشه: نحو الجسد الأعلى ..، نحو الإنسان الأعلى

لقد ظهر نيتشه في منتصف القرن التّاسع عشر(1844-1900) حيث اتّسم هذا القرن بثورته العلميّة التي تحدّدت أساسا في مجال الفيزياء الرياضيّة، وعلماء قادوا هذه الثورة ؛من بينهم أسماء لامعة تمثلت في أينشتاين، بلانك، دي بلوجلي, هايزنبيرغ وشريدنجر، هذه الثورة العلميّة هي الأخرى تحدّدت في مجال النّظرة إلى الكون والإنسان، والتي ارتبطت بدورها بوالاسهكسلي... هيكل وداروين، هاتان الثورتان غيّرتا النّظرة إلى العالم من حيث هو كون مادي، ميكانيكي متطور، لا تحكمه قوى روحيّة متعالية تعنى به، وبالإنسان والذي نُظر إليه بناءً على نتائج البحث في علم الأحياء، وعلم النفس على أنّه سوى وجود عضوي فيزيقي كيميائي. كما أنّ نظريّة التّطور "أطاحت بالعقل الذي يتميّز به الإنسان حيث أعلنت أنّه من فصيلة الحيوان كأيّ حيوان آخر"[10]

هذه الثورة العلميّة أشعرت البعض بخيبة الأمل والتشاؤم بهذا العالم، وفي هذا العالم، لكن كانت هناك ردّة فعل أخرى إيجابيّة من جانب آخر حيث نظر إلى الحياة نظرة متفائلة، ودعا إلى شحذ الإرادة لأجل التّحدي واستهلاك الإنسان لهذا العالم الذي يعيش فيه.

تلك الملامح للثورة العلميّة كان لها وقع وصدى كبير في التّفكير الفلسفيّ الإنسانيّ، ويتجلّى هذا خصوصا في فلسفة نيتشه الذي جاء لينسف بكثير من التّقاليد الفلسفيّة، الدينيّة، والأخلاقيّة؛ هذا الفيلسوف جاء ليعصف بالأخلاق السّائدة والغابرة التي وضعت العقل تاجا لتحقق سيادتها المطلقة، إنّه يعدّ فيلسوف القلب بل هو نفسه يرى هذا حيث يعترف بهذا الطّرح دون مراوغة أو نفاق" قلب كل القيّم تلك هي صيفتي المبجلة للتعبير عن أرقى وعيّ ذاتيّ للإنسانيّة.. وأن أعي نفسي كنقيض لأكاذيب آلاف من السنين..."[11]

إنّ نيتشه يهوي بمطرقته على كلّ تفكير ديني، وكلّ فلسفة مثاليّة ليحاكم كليهما، واتّهمهما بالسّقم وذلك التّفكير زيّف حقيقة الوجود فرأى أنّ الفلسفة المثاليّة هي "حتّى الآن سوى نوع من المرض"[12] فهو يعتبر نفسه أنّه أول من اكتشف هذا الزّيف:"إنّني أول من أكتشف الحقيقة لأنّني استطعت أن أرى إلى الكذب، ككذب اشتممته عبقريتيّ في أنفي"[13]

لقد كذّب نيتشه كلّ تفكير متعال، حلّق بعقله إلى السّماء، ولم يلتفت إلى الأرض، كلّ تفكير مفارق، يتعالى فيستعلي على الحياة، إنّها جريمة فكر قتل عالم الأرض، وكلّ من يحيا فيها

ليحيي عالما مفارقا، هو في الحقيقة غير موجود، وإنّما صنعه زيف الخيال زيف العقل، فسواء المسيحيّة أو الفلسفات المثاليّة بتمييزها بين عالم علويّ حقيقيّ، عالم السّماء، العالم الآخر الخالد وعالم سفليّ غير حقيقيّ، عالم الأرض، العالم المتغيّر الزائل لا تعبّر إلاّ عن تفكير هشّ ومنحط: "إنّ تقسيم العالم إلى عالم حقيقيّ، وعالم ظاهريّ لا يمكنه أن يصدر إلاّ بإيعاز من الانحطاط، و لا يمكن أن يكون إلاّ علامة حياة آفلة"[14] فهذا التّقسيم الميتافيزيقي للعالم ما هو إلاّ إنتاج حلم الإنسان البدائيّ على حدّ اعتقاد نيتشه الذي يرى أنه: "في عصور الحضارة البدائيّة الفجّة اعتقد الإنسان أنّه في الأحلام يكون مهيّئاً لرؤيّة عالم آخر حقيقيّ، هنا تكمن أصل كلّ ميتافيزيقا، فبدون حلم ما استطاع الإنسان أن يجد فرصة لتقسيم العالم"[15]

هذا الحلم كان نتاج تركيب العقل الذي طالما احتقره نيتشه، فاحتقر بذلك كلّ الفلسفات العقليّة، وعلى رأسهم سقراط؛ فالعقل هو الذي أغرقنا في خرافة الميتافيزيقا، واحتقر الحواس، وصنع لنفسه القدسيّة فخدم الفلسفة المثاليّة، وخدم المسيحيّة، فتربع على عرشه، فهو الحاكم بالحقيقة؛ أوهمنا أنّ هناك عالما علويّاً حقيقيّاً، وليست الأرض هي المأوى الحقيقيّ الخالد، لكن نيتشه أحبّ الحياة والتي هي أعزّ عليه من حكمته. إذا كان قد آمن بأنّه سيموت، فلم يكن ذلك الإنسان اليائس بل كان يوجه نداءه الصّريح إلى كلّ من يعيش في الأرض، قائلا على لسان زرادشت:"أناشدكم يا إخواني أن تظلوا أوفياء للأرض، ولا تصدقوا أولئك الذين يحدّثونكم عن آمال في عالم أخرويّ"[16] فالعقل صنع لنفسه الحكم المطلق بالخطأ والصواب، بالشّرّ والخير، فأفسد علينا حياتنا في الأرض، خدعَنا باعتقاده أنّ السعادة من الفضيلة، والفضيلة هي ما يحدّدها حكم العقل، وليس الحواس والغرائز، وكلّ من كان يتشبث بالعالم الظاهر، ويثق بحواسه، لا ينصت إلى نداء العقل، فهو فاسد أخلاقيّاً، غوغائيّ غير راق؛وهكذا تقدّس العقل" فصنم الفلاسفة الأكبر هو العقل، جعلوه فوق الوجود"[17]، ولكن نيتشه يعتقد: "أنّ أحكاما مثل هذه ليست في حدّ ذاتها إلاّ حماقات"[18] فالعقلانيون بأحكامهم أقاموا جريمة قتل ومجزرة لكلّ ما هو دنيويّ حي بأحكامهم وقتلوا حتّى الحقيقة"لا شيء حقيقيّ خرج حيّاً من بين أيديهم، عندما يتداوله هؤلاء السّادة المولوعون بالمفاهيم المجرّدة يعرضون كلّ شيء لخطر الموت".[19]

لقد كفر نيتشه بإله المسيح الذي تواطأ مع الفلسفات المثاليّة العقلانيّة في نسج خرافة العالم الآخر، والقسوة علينا حينما تواطأ كلاهما في خلق أخلاق مفارقة، إنّها تضاد طبيعتها، وبالتّالي تميتها، فكافح نيتشه ضد تلك الأخلاق التي سلبتنا ذاتنا ؛فهو يقرّ بهذا الكفاح قائلاً: "في كتاب الفجر شرعت لأول مرّة في مكافحة أخلاق الإستيلاب الذاتي".[20]

ويقترن إذاً إعلان نيتشه عن موت الإله بإعلانه عن موت العالم الآخر، وبإعلانه عن موت الأخلاق التي رأى أنّها تضاد طبيعتنا وتستأصلها، فالأخلاق التي تتجه إلى مهاجمة النزوات من الجذر تعني مهاجمة الحياة من الجذر"[21] معلنا أنّ العالم الحقيقيّ هو العالم الظاهر، إنّه هذا الذي أمامنا أمام حواسنا الذي يحتوينا إنّه الأرض، ويتجاوز ثنائيّة: العالم الحقيقيّ المفارق/العالم الظاهر إلى أحاديّة العالم، وهو هذا العالم الذي نحيا فيه العالم الذي يحتوي أجسادنا، وبهذا يتجاوز أيضا ثنائيّة الروح والجسد، أو النّفس والجسد إلى أحاديّة الجسد، أحاديّة تتأسس على البعد البيولوجي؛ وهو كبعد بيولوجي يصير به الإنسان مثله مثل كلّ سائر الحيوانات، هذا الطّرح يراه نيتشه تصحيحا لكلّ الفلسفات التي نظرت إلى الإنسان نظرة متعاليّة يملأها الغرور، حيث قال: "لقد أعدنا تصحيح المفاهيم، لقد عدنا متواضعين في كلّ الحقول، إنّنا لم نعد نشتق الإنسان من الروح، ومن الألوهيّة، وإنّما صرنا نضعه بين الحيوانات...".[22] فهاهو الإنسان في

نظر نيتشه هو ذلك الجسد الذي يظهر أمامنا كأجساد الحيوانات، لكنه يراه الحيوان الأقوى والأدهى من كلّ الحيوانات: "لكنّنا نعدّه الحيوان الأكثر قوّة، ذلك أنّه الأكثر دهاءً"[23]، فالجسد هو التّركيبة الجوهريّة للإنسان أولاً وقبل كلّ شيء، إذ هو أساس بناء الذات الإنسانيّة التي تعيش على هذه الأرض، فهو دلالة على وجود العالم الظاهريّ، الذي يزيد تأكيدا لوجوده: "إنّ الجسد السليم يتكلم بإخلاص، وبكلّ صفاء، فهو كالدعامة المربعة من الرّأس حتّى القدم، وليس بيانه إلاّ إفصاحا عن معنى الأرض".[24] فحينما يرفع من شأن العالم الماديّ فهو أيضا يرفع من شأن ما هو عضوي جسميّ في الإنسان" ربّما يتعلّق الأمر حصرا بالجسم في كلّ نمو الروح، هذا النّمو قد يتمثل في جعل تكوين جسم أسمى أمراً محسوسا بالنسبة إلينا، يمكن أن يرتفع العضويّ أيضا درجات عليا"[25]، وبهذا يعتقد نيتشه أنّنا وصلنا إلى إزاحة الغرور الذي كبّل العقل فقد" بلغنا المرحلة التي يصبح فيها الوعيّ متواضعا"[26] فيدافع نيتشه عن الجسد الإنسانيّ، فكما دافع وألح على الوفاء للأرض ألّح على الوفاء للجسد، والإنصات إليه.

كافح ضدّ من احتقره من المتدينين والفلاسفة المثاليين العقلانيين فيفسر احتقارهم للجسد وإرادة إماتته بأنّهم غير قادرين على تحقيق مطامحهم؛ فبهذا يتمنون الموت لأجسادهم "ولقد مضى وقت تحقيق هذه الرغبة، لذلك تطمح ذاتكم إلى الزوال أيّها المستهزئون بالأجساد، إنّ ذاتكم تتوق إلى الزّوال، وهذا ما يدفع إلى الاستهزاء بالأجساد إذ قد امتنع عليكم أن تخلقوا من هو أفضل منكم"[27]، وكما أوصى بالانهمام بعالم الأرض، أوصى بالانهمام بالجسد؛فهو يقول:" أما أنتم يا إخوتي، فاصغوا إلى صوت الجسد الذي أبل من دائه، لأنّ هذا الجسد يخاطبكم بصوت أنقى وأخلص من تلك الأصوات"[28]

لقد كانت ثنائيّة روح/جسد تراتبيّة حيث إنّ أفلاطون وديكارت وغيرهما من اللاهوتيين قد وضعوا الروح في أعلى درجة من الجسد، فهي كانت جوهر الإنسان، هي المسيطرة؛ قد رأت لذّتها في القسوة عليه، فانعتاقها مشروط بضعفه وسقمه وهشاشته، لكنّ نيتشه رأى أنّ هشاشته وضعفه من ضعف الروح ذاتها، فهو يقول: "لقد كانت الروح تتمنى الجسد ناحلا قبيحا، جائعا متوهمة أنّها تتمكن بذلك من الانعتاق منه، ومن الأرض التي يدبّ فيها، وما كانت تلك الروح إلا على مثال ما تشتهي لجسدها ناحلة، قبيحة جائعة، تتوهم أنَّ أقصى لذّاتها إنّما يكمن في قسوتها وإرغامها"[29]. ففلسفة الجسد عند نيتشه تنسف بتلك الثنائيّة التراتبيّة القائمة على تعالي الروح على الجسد باعتبار الأولى جوهرا والثاني عرضا، فهو فيلسوف القلب حيث أصبح الأمر عنده معكوسا، فالجسد هو الجوهر، هو الأصل؛ وما الروح أو النّفس أو العقل إلا عرض غير مستقل بذاته، ومتعلق بالجسد بل مجرّد جزء منه" إنّني بأسري جسد لا غير، وما الروح إلا كلمة أطلقت لتعيين جزء من هذا الجسد".[30]

ينعت نيتشه البدن بأنّه عقل عظيم، وما العقل إلا أداة أو لعبة صغيرة له "إنّ آلة جسدك إنّما هي أداة عقلك الذي تدعوه روحا أيّها الأخ إن هو إلاّ أداة صغيرة أو ألعوبة صغيرة لعقلك الكبير"[31] فالجسد ما هو إلاّ الوجود المادي الظاهر للأنا الباطن المتخفي "هذا الجسد لا يتبجح بكلمة أنا لأنّه هو أنا، هو مضمر الشخصيّة الظاهرة.... فإنّ وراء إحساسك وتفكيرك يا أخي يكمن سيّد أعظم منهما سلطانا لأنّه الحكيم المجهول، وهذا الحكيم هو الذات بعينها المستقرة في جسدك، وهي جسدك بعينه أيضا"[32].

إن كان نيتشه يصر في مقام آخر على أن العقل أو الروح، ما هما إلاّ أعراض أو أجزاء تابعة له"ما الجسد إلاّ الصوت، وما الروح إلاّ الصدى النّاجم عنه والتّابع له"[33]. نجده في مقام أخر لا

يفصل بينه وبين النّفس فلا يجعل لأحدهما الأسبقيّة الوجوديّة على الآخر، ولا يجعل لأحدهما البقاء بعد الآخر؛ فهما شيء واحد، وموت الإنسان يكون بفناء الرّوح والجسم معاً "ها أنا ذا أموت وأتوارى، وعمّا قليل سأصبح عدماً، فإنّ الأرواح تفنى كما تفنّى الجسوم".[34]
كما أنه في مقام آخر، يحدّد العلاقة الحميميّة بين الجسد والروح في قوله: "إنّ الجسد يقطع مسافات التّاريخ بكفاحه، ولكن ما تكون الروح من الجسد ياترى؟" إن لم تكن المذيع لكفاح الجسد وانتصاراته".[35]
ودفاع نيتشه عن الجسد هو أيضا دفاعه عن أجزائه العضويّة المتمثلة في الحواس كجانب عضوي حسيّ فيزيولوجي مادي يفصح عن معنى الأرض؛ فهي التي تكشف عن تغيّره وصيرورته، وبالتّالي هي التي تقول الحقيقة "وما دامت الحواس تكشف عن الصيرورة، عن اللاثبات، عن التّحوّل، فإنّها لا تكذب"[36], فهي على خلاف العقل الذي أوهمنا بأفكار خاطئة عن العالم الذي نعيش فيه ممّا وسع الخلاف بيننا أكثر فأكثر، فلا يجب أن نصدّقه، واعتقد أنّ "الأفكار أشدّ فتنة من الحواس".[37] فالحواس لم تخدعنا لأنّها بينت لنا أنّ العالم في تغيّر دائم، والتّغيّر يوحي بوجود تاريخ للعالم، وإضفاء التّاريخيّة على العالم افتقر إليها عقل الفلاسفة كونه كان متعاليّاً على العالم، ومتعاليّاً على الحواس أيضا، وبهذا فإنّ أدوات التّفكير والتأثر، ومشروعيتها ليست روحانيّة أبدا، فهي ماديّة عضويّة نابعة من الجسد، إنّها الحواس؛ فهو يرى أنّ في اعتراضه على موسيقى صديقه فاغنر هو في الحقيقة اعتراض حواسه على ذلك حيث لم تستسغها، فقد قال:"إنّ اعتراضي على فاغنر اعتراضات فيزيولوجيّة، أتنفس بصعوبة ما أن تبدأ موسيقاه بالتّأثير على قدمي، تحقد عليه وتثور، وتشعر قدمي بالحاجة إلى إيقاع الحاجة إلى الرقص والسّير".[38]فردود العقل السلبيّة والإيجابيّة تعبر عنها مناطق جسميّة، وليست تعبيرا فكريّاً تجريديّاً" إنّما نطلبه من الموسيقى هو قبل كلّ شيء الانخطاف الذي توحي به لطافة المشي والخطو، والقفز والرقص، ومعدتي أن لا تعترض هي أيضا، وقلبي، ودورتي الدّمويّة، وأحشائي"[39] بل و يرجع نيتشه نسبة التّفكير والعبقريّة إلى الحواس، فها هو يشيد بقدرة الأنف التي أهملها الفلاسفة، فهو يقول:"هذا الأنف مثلا لم يسبق فيلسوف أن تحدّث عنه بتوقير وامتنان... قادر على أن يتبين في الحركة أدنى الاختلافات التي لم يكتشفها مطياف"[40]. إنه يعبر عن عبقريّة إحساسه التي مكّنته من أن يكون أول من اكتشف الحقيقة " إنّني أول من اكتشف الحقيقة لأنّني استطعت أن أرى إلى الكذب، ككذب اشتممته عبقريتيّ في أنفي".[41] كما رأى نيتشه أنّ الأخلاق التي هدمت الحياة هدمت الطبيعة، ومن ثمّ حتّى الجسد، وما فيه من غرائز التي يجب احترامها. إنّ تلك الأخلاق التي دعت إلى الزهد الذي يعلى فيه شأن الروح والادعاء بأنّ الذات تملك الحريّة والإرادة في التّحكم في الجسد، ما هي إلاّ لحظات الانحطاط الأخلاقيّ التي تساهم في تضييع طاقة الجسم التي هي من طاقة الحياة، حيث يدّمر فيها الإنسان جسديّاً ف: "أيّ معنى تحمل هذه المفاهيم الكاذبة، المفاهيم الرّافضة للأخلاق:" النّفس، الرّوح، الإرادة الحرّة الله "إن لم تكن التّدمير الفيزيولوجي للإنسانيّة؟... عندما يعمد المرء إلى تحويل وجهة جديّة حفظ النّفس وتنميّة القوّة البدنيّة يعني طاقة الحياة، ويجعل من فقر الدّم مثالا، ومن تحقير الجسد خلاص الرّوح، ما الذي يعني هذا إن لم يكن وصفة للانحطاط ؟"[42]. وهذا الانحطاط الذي ميّز أخلاق المثاليّة والمسيحيّة تحديدا التي أعلت من شأن الروح، وعملت على تحقير الجسد، ودعوتها إلى الزهد ما هو إلاّ دعوة إلى الكسل، وراحة عدميّة، ومرض أصاب عقولهم: "وهو عند القديسين ذريعة للنّوم الشتائيّ، وراحتهم في العدم (الله)، و تجلي عتههم ودائهم العقليّ"[43].

وهكذا يكره نيتشه الفضيلة التي تفارق الحياة، تتعالى عنها، وتستعلي عليها, تلك الفضيلة التي تسكن في السّماء، إنّها في نظره ضّالّة تائهة، فلابدّ أن ترجع إلى الأرض، وتعيش لأجل الأرض، وما عليها؛الفضيلة التي تنعش الأرض، وتكسب الأجساد حيويتها: "أرجعوا الفضيلة الضالّة كما رجعت بها أنا إلى مرتعها في الأرض، عودوا بها إلى الجسد، وإلى الحياة لتنفخ في الأرض روحها روحا بشريّة"[44]. يرى نيتشه إذاً أنّ رفع مستوى الإنسان والإعلاء من شأنه دون طمع في عقل يأتي بالخوارق مهدَّم بالأوهام، هو ترقيّة الجسد كلّه، فقد قال على لسان زرادشت: "لنرفعن الإنسان فوق مستواه أسوة باليونان، فلا نطمح إلى الخوارق العقليّة، وخير لنا أن نستبعد العقل الرّاجح، إذ قيّده الخلق الضعيف والأعصاب المتهدّمة، وليكن هدفنا إنماء الجسد كلّه لا الدّماغ وحده"[45].

لقد أحبّ نيتشه الحياة، ورأى أنّنا ما وجدنا إلاّ لنحيا لأنّنا أجدر بأن نحيا ونعيش، فهو يقولها صراحة:"نعم الحياة تستحق العيش، نعم أنا جدير بأن أعيش".[46] وحياة الإنسان لا تكون خارج هذا الوجود، هذا العالم الظاهريّ بل داخله لأنّ هناك تلك "العلاقة الدالة على صداقة بديعة بين هذا الجسد والكون"[47]. هذه العلاقة تتمثل في أنّ الكون بكل ظواهره بما فيها الجسد الذي هو جزء منه فيه إرادة قوة فإذا كانت: "إرادة القوة تتجلى في كل الظواهر"[48]. فهذا يعني أنها تطبع الجماد من حجر ونبات وحيوان والإنسان في جانبه الجسدي الحي. فصيرورة العالم تعني أنّ العالم يتبدل يتغيّر، ليس ثابتا، "في الحياة ترتسم نزعة حرة نحو النّماء، والتّغيّر الدائم، ونزعة نحو شعور مطلق بالحياة".[49] يعني أنّ الكائنات الحيّة بالخصوص تتجاوز ذاتها باستمرار للانتقال إلي حياة أعلى منها، وهذه هي إرادة القوّة التي يراها نيتشه تتحرك نحو حياة هابطة نافيّة منحطّة، وبالتّالي تؤسس من خلالها قيّما منحطة كتلك التي تبنّاها الضعفاء، وهي قيّم محقرة للجسد، فظلّ عندهم ناقص الفعاليّة، وتتحرك نحو حياة صاعدة إثباتيّة التي تؤسس القيّم النبيلة القويّة، وهذا هو اتجاه حياة الأقوياء. وهذا هو الاتجاه الذي يريده نيتشه لإرادة القوّة الموجودة في الجسد، لا يجب هدرها وتبديدها. فلابدّ أنّ نتجه بها إلى مسارها الحيويّ الطبيعيّ الذي لا يناقضها،، ويجعلها تخلق قيّما تتوافق معها، ولا تهدمها فإرادة القوّة في الجسد المتمثلة في التّغدي تنقله من حالة أضعف إلى حالة أقوى تكسبه متانته البيولوجية، وتجنبه السّقم كما أنّ إرادة القوّة المتمثلة في التكاثر تجعله يضاعف من نفسه، وهذا هو مركز قوته تحاشيا لندرته، وضمانا لبقائه، واستمراره، وبالتّالي سيطرته، فقوّة الإرادة في الجسد هي"قوّة الغرائز، وثرائها".[50] فغرائز جسد الإنسان هي إرادة القوّة، فالإنسان مثله مثل الحيوانات الأخرى يتجه إلى إشباع غرائزه دائما، والتي هي مرتبطة بشروط تؤدي به إلى حياة أكثر قوّة تبعا لقوانين الطبيعة ليجعل تلك الغرائز أكثر سموا، فينزع إلى خلق قيّم الفضيلة، العدالة، المعرفة التي"هي ليست أكثر من وسائل على دروب التّحقق المتكامل للغرائز الإنسانيّة، ولولا أمثال هذه الوسائل لأصيبت الغرائز بالضمور"، [51] فهذه القيّم هي الوجود الفعليّ التّجسيديّ للغرائز في صورتها المكتملة السّاميّة.

إن إرادة القوّة في الجسد هي نزوع الجسد إلى تجاوز ذاته من حالة أدنى إلى حالة أعلى، أقوى، أمثل تضمن له الاستمرار، ومن هنا حدّد لنفسه القيّم، فالجسم ينتقل من ألم إلى لذّة أحسن وأقوى، قد يجدها في التّغدي، في التكاثر أو سلوكيات حيويّة أخرى...، وهكذا تتحدّد لديه معايير الخير والشّرّ؛ فالخير في اللّذة التي تنعش الجسم، وتنقله من حالة إلى أخرى، والشّرّ في الألم الذي ينتاب الجسم، فالسعادة نابعة من الجسد، ويحدّدها الجسد، فلا تتحقّق بتحقير الجسد، والابتعاد

عن ملذاته "فحسب هؤلاء النّاس أنّ في عقوقهم قد فازوا بالنّعيم بعيدا عن جسدهم، وعن الأرض، وتناسوا أن تنعمهم، ورعشة ملذاتهم إنّما نشأت من أجسادهم، ومن هذه الأرض."[52]، وهكذا يقلب نيتشه المعادلة الأخلاقيّة التّقليديّة: عقل= فضيلة= سعادة إلى جسد= فضيلة = سعادة. فتصبح الأخلاق إذاً ظاهرة فيزيولوجيّة جسديّة عند نيتشه.

فالجسد بقوة الإرادة الصاعدة الاثباتية التي تطبعه هو خالق القيّم إذاً هو خالق الفكر" فمن أين كان سيأتي هذا الفكر لو لم يوجد في هذا الجسد صعود جبال للقوّة الأكثر حيويّة".[53]

فإرادة القوّة في الجسد إذا ما استغلها الإنسان في اتجاهها الصاعد، فإنّها ستخلق جسدا أقوى، ، وبالتالي جسدا أعلى، وبهذا فالجسد هو الذي سيصيّر نفسه جسدا أعلى بنزوعه إلى تجاوز ذاته، وليس الفكر هو الذي سيبلغ به هذه المرتبة، مما يمكنا من أن نحكم "بأن المعجزة لا تتمثل في الوعي، ولكن في الجسد".[54]

فيتمنى نيتشه على لسان زرادشت بكلّ تفاؤل في المستقبل جسدا أعلى، وأرقى لأنّ مشروعه المستقبليّ بعد أن قتل العالم السّماويّ، وقتل الذي يسكن فيه، هو الإنسان الأعلى يتجاوز ذلك الإنسان الذي طالما احتقر جسده، جعله عرضة لقيّم الزهد، وحرمه من ممارسته لوظائفه الطبيعيّة بسخاء، فتآكل، وكان جسدا مصابا بفقر الدّم، هزيلا ضعيفا، جسدا منحطّاً اتجهت به تلك الأخلاق المنحطّة إلى إرادة قوّة سالبة محْبطة زاعمة أنّها تمنحه القوة الإيجابيّة، فكان عليلا، لم يأسف نيتشه لهذا الوضع الذي سيثير الشفقة، ويتمنى لهذا الجسد الشفاء، ولكن يتمنى له الرّقيّ أيضا "إنّ زرادشت ليشفق على الأعلاء، لأنّهم عقّوا جسدهم، وأرضهم بل هو يرجو لهم الشّفاء والتّغلّب على أنفسهم ليوجدوا لهم أجسادا أرقى من أجسادهم"[55]، وحينما يرقى الجسد سيتحقّق مشروع الإنسان الأعلى الذي يحقّق الانتصار على القيّم المنحطّة، ويحقّق السّيطرة والتّحكم، "إنّ الجسد بهذا المعنى يكون إرادة قوّة متجسدّة بواسطة أفعاله، وحركته المتواصلة التي لا تنقطع عن النّموّ والامتداد، والسّيطرة"[56]، فالشّغف الكبير لنيتشه بالجسد، وهذه الرحلة معه أظهرت له أنّه أصبح عارفا به إلى درجة أنّ مسألة وجود الروح في نظره أصبحت هامشيّة، فهو يقول: "منذ بدأت أعرف حقيقة الجسد لم تعدّ الرّوح روحا في نظري إلاّ على أضيّق مقياس"[57].

خاتمة:

لقد طرح نيتشه الإشكاليّة الأنطولوجيّة للإنسانيّة من خلال طرحه لإشكاليّة الجسد، وقد أجاب جوابا مقلوبا صريحا على غير منوال سابق فالجسد حاضر، وهو الأصل في تكوين الذات الإنسانيّة. وأراد نيتشه حضور الجسد وإثباته بدون شروط أو مبررات فهولا يثبت حضوره من خلال وجود عالم سماويّ، يوجد فيه إله، فهو نسف بكل تلك المبررات، كما أنّه يحضره ليس باسم وجود نفس حاضرة ند النّد حتى يخفّف عنا رعب مفاجأة الجسد التي يحملها إلينا، إنّ الأمر لا يهمّه؛ فهو في الغالب حاضر، وهو السّيّد، وهو المبدع إلى درجة أنّه يضع النّفس في مكان ضيّق خانق، فهو حاضر حتّى وإن كانت النّفس لا تعنيه، فالعقل الذي توهموا أنّه ينبثق منها أصبح كاذبا، والحواس صادقة في محكمة نيتشه، فالجسد هو الإفصاح عن الكون, عن الحياة، وسيظلّ في علاقة حميميّة معهما لأنّهما يشتركان في الصّيرورة، وبالتّالي في إرادة القوّة.

إنّ إرادة القوّة التي يحملها الجسد في مسارها الموجب الإثباتيّ تعكس جسدا يحمل طاقة خلاّقة إبداعيّة، تبدع القيّم أي تبدع الأفكار. فأصبحت الأخلاق عند نيتشه جسديّة المصدر، وأصبح الفكر يخرج من رحم الجسد، فتربع بحواسه على عرش المعرفة، وأطاح بالعقل، فأصبح الجسد

هو السّيّد، وليس العقل. إنّ إرادة القوّة الموجودة في الجسد باتجاهها الإثباتيّ ستخلق منه عملاقا في الأرض، ينزع نحو الأفضل، نحو الأرض، فهو الرّهان لصنع الإنسان الأعلى.

1-عن حسين موسى – ميشال [1]Platon Alcibiad Paris HACHETTE 1980 131 a 133 d p113
فوكو : الفرد والسلطة – دار التنوير ب ط 2009 ص 25.

[2]روني ديكارت، **تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى**، ترجمة: كمال الحاج منشورات عويدات بيروت، باريس، الطبعة 4، 1988، ص 9.

[3] روني ديكارت، **مقال عن المنهج**، ترجمة: محمود محمد الخضيري، مراجعة وتقديم : محمد مصطفى حلمي الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 3 ، 1985، ص 218.

[4]روني ديكارت، **تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى** ، ص 288

[5]نفس المرجع ،ص 70

6نفس المرجع، ص222-224

[7]باروخ سبينوزا ، **الأخلاق** ، ج 1 برهان القضية ،19 ترجمة: جلال الدين سعيد ، دار الجنوب ، ب ط، ص 56

[8]نفس المرجع، ملازمة القضية 25 ، ص 62.

[9]د/محمود حمدي زقزوق، ج 1 ، **دراسات في الفلسفة الحديثة** ، ط 3 1993 ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ص 117 .

[10]د/يسري إبراهيم، **فريدريك نيتشه (فلسفة الأخلاق)**، دار التّنوير للطباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، 2007 ، ص 43.

[11]فريديريك نيتشه، **"هذا هو الإنسان"** ، ترجمة: علي مصباح، منشورات الجمل، ص154.

[12]فريديريك نيتشه، **"العلم الجدل"**، ترجمة: سعاد حرب، دار المنتخب العربيّ، ص234.

[13]فريديريك نيتشه، **هذا هو الإنسان"**، ترجمة: علي مصباح، ص154.

[14]فريديريك نيتشه : **أفول الأصنام**، ترجمة: حسان بورقبة، محمد الناجي، دار إفريقيا الشرق، ط ،1 1996، ص 32.

[15]د/- يسري إبراهيم : **فريديريك نيتشه (فلسفة الأخلاق)**، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ،2007 ، ص 141

[16]فريديريك نيتشه : **هكذا تكلم زرادشت**، ترجمة فيليكس فارس ، دار جريدة البصير الإسكندرية، 1938 ، ص 84.

[17]عبد الرحمن بدوي : **نيتشه** ، وكالة المطبوعات الكويتية، ط 5 1975 ص 202.

[18] فريديريك نيتشه : **أفول الأصنام**، ترجمة: حسان بورقبة، محمد الناجي، ص 19/18 .

[19] نفس المصدر ص 25

[1]فريديريك نيتشه، **هذا هو الإنسان**. ترجمة:علي مصباح ، ص108.

[2]فريديريك نيتشه، **أفول الأصنام**. ص 36.

[22]فريديريك نيتشه، **عدو المسيح**، ترجمة جورج ميخائيل ديب ، دار الحوار، ط2/ص116.

[23]نفس المصدر ، ص 116

[24]فريديريك نيتشه، **هكذا تكلّم زرادشت**، ص25.

[25]جيل دولوز: **نيتشه**، ترجمة: أسامة الحاج , المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنّشر والتّوزيع.لبنان، ط 1 ، 1998 ص68-69.

[26]نفس المرجع.ص 68

[27]فريديريك نيتشه، **هكذا تكلّم زرادشت**. مصدرسابق.ص27

[28]نفس المصدر ص 25

[29]نفس المصدر، ص06

[30]فريديريك نيتشه، **هكذا تكلم زرادشت**, مصدر سابق، 25

[31]نفس المصدر ص 25 .

[32]نفس المصدر، ص25, 26

[33]نفس المصدر ص 62

[34].نفس المصدر ص189

[35]نفس المصدر :ص 62

[36]فريديريك نيتشه، **أفول الأصنام** ، ص26

[37]فريديريك نيتشه، **العلم الجدل**، ترجمة: سعاد حرب. دار المنتخب. ص 234

[38]نفس المصدر ، ص 228

[39]فريديريك نيتشه, **العلم الجدل**، ترجمة: سعاد حرب, ص228

[40]فريديريك نيتشه **أفول الأصنام**، تر: حسان بورقبة, محمد الناجي، ص 27

[41]فريديريك نيتشه، **هذا هو الإنسان"**، ترجمة: علي مصباح/منشورات الجمل /ص154.

[42]نفس المصدر ،ص108.
[43]فريديريك نيتشه، **أصل الأخلاق وفصلها**، ترجمة: حسن قبيسي المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، ب ت، ص95.
[44]فريديريك نيتشه، **هكذا تكلّم زرادشت**، مصدر سابق، ص63.
[45]نفس المصدر ، ص287.
[46]فريديريك نيتشه، **العلم الجدل**، ترجمة: سعاد حرب ، مصدر سابق ، ص33.
[47]بيير مونتبيليو، **نيتشه وإرادة القوّة**. ترجمةوتقديم:جمال مفرج/ الدّار العربيّة للعلوم ناشرون ط1 2010 ص 179.
[48]نفس المرجع، ص 69.
[49]بييرمونتبييلو:**نيتشه وإرادة القوة**, مرجع سابق، ص 69.
[50]أحمد نبيل عبد اللّطيف:**فلسفة القيّم نماذج نيتشوية**، دار التّنوير للنشر والطباعة والتّوزيع ص87
[51]رودلف شتاينر: **نيتشه مكافحا ضدّ عصره** ترجمة: وتقديم: حسن صقر. دار الحصاد للنشر والتّوزيع سوريا ط1 1998، ص 65
[52]فريديريك نيتشه، **هكذا تكلّم زرادشت**، مصدر سابق، ص23
[53]بيير مونتبيليو: **نيتشه وإرادة القوّة**. ترجمة وتقديم: جمال مفرج، مرجع سابق ، ط1 2010 ص 178
[54]نفس المرجع، ص 149
[55]فريديريك نيتشه، **هكذا تكلّم زرادشت**، مصدر سابق، ص 24
[56]د.أحمد نبيل عبد اللّطيف : **فلسفة القيّم نماذج نيتشويّة**، مرجع سابق، ص88.
[57]فريدريك نيتشه، **هكذا تكلّم زرادشت**، مصدر سابق، ص107.